

التَّسْبِحة الشَّيْرُوبِيْمِيَّةُ وَالتَّسْبِحة السَّيْرَافِيْمِيَّةُ

تعالوا نتفق أولاً على المسميات الصحيحة لهاتين الطغمتين اللتين هما أعلى الطغمت السَّمائِيَّة. نقول: شيروب، والجمع شيروبيم. ونقول سيراف والجمع سيرافيم. كما في جميع اللغات، لأنها أسماء عبرية.

فمن هم الشَّيْرُوبِيْم ومن هم السَّيْرَافِيْم كتابياً ولتتورجياً؟

راجع حزقيال الأصحاح الأوَّل، والآيات ٥، ٦، ١٣ وعن أوجه الشَّيْرُوبِيْم ١٠، ١٨ وعن أجنحة الشَّيْرُوبِيْم ٩، ١١، ٢٣، ٢٤ وعن العرش الذي يحمله الشَّيْرُوبِيْم ٢٦، ٢٨ وقارن مع حزقيال الأصحاح العاشر.

وعن نص تسبحة الشَّيْرُوبِيْم انظر: رؤيا ٤: ٨

أما من جهة النصوص اللَّيتورجِيَّة:

• من ألقابُ الله الابن في النصوص اللَّيتورجِيَّة القبطِيَّة
”الجالسُ فوق العرش الشَّيْرُوبِيْمِي الملتهب“.

• ونقول في القطعة الثَّانية من ثيُوطوكِيَّة يوم الجمعة في تسبحة السَّحَر
”لأنَّ الذي على الشَّيْرُوبِيْم أتى وتجسَّد منك حتى اتحدنا به من قِبَل صلاحه“.

• وفي الأعياد السَّيْدِيَّة، تُرتل الكنيسة القبطِيَّة قبل لحن أحيوس، أربعاً على وزن أسبَسْموس ميغالو يرُدُّ فيها الرُّبْع الأوَّل محتصاً بمناسبة العيد، وأما الأرباع الثَّالية له، فتورد نصَّ ”المجدلة“ وهي من أقدم تسابيح الكنيسة، والتي تعرفها كافة كنائس المسكونة، وهي المعروفة في الكنيسة القبطِيَّة باسم ”تسبحة الملائكة“، فنقول:
”الشَّيْرُوبِيْم والسَّيْرَافِيْم، الملائكة ورؤساء الملائكة، والعساكر والسَّلاطين والكراسي والرُّبُوبِيَّات والقوَّات، صارخين قائلين: المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السَّلام وفي النَّاس المسرَّة“^(١).

• ومرد ”قبلوا بعضكم بعضاً بقبلة مقدَّسة...“ في القُدَّاس الغريغوري، يقول فيه الشَّمَّاس:
”... ارفعوا أعينكم إلى ناحية المشرق، لتنظروا المذبح وجسد ودم عمانوئيل موضوعين عليه. الملائكة ورؤساء الملائكة قيام، الشَّيْرُوبِيْم الممثلون أعيناً، والسَّيْرَافِيْم ذوو السَّنَّة الأجنحة، يسترون وجوههم من بهاء عظمة مجده غير المنظور ولا منطوق به“.

• ويقول القانون الأوَّل للبابا أثناسيوس الثَّاني (٤٨٩-٤٩٦م):

”نقول أيضاً للكهنة القريبين من الرَّب، فليتطهَّروا لئلاً يُهلك الرَّب قوماً منهم. لأنَّ هذا قد لحق ببني هارون لما لم يتطهَّروا كوصِيَّة أخي أبيهم، بأن يصنعوا كهنوتهم بخوف الله. لأنَّ موسى قال: أنا خائفٌ ومرتعِد، لأنَّ هذا هو الموضع الذي يقوم فيه الرَّب. إذ يقول (الرَّب) لموسى: إني أظهرُ لك في ذلك الموضع بين أجنحة الشَّيْرُوبِيْم وأحاطبك. لأنها كلمة خرجت من فمه قائلًا: لا يرى إنسانٌ وجهي ويعيش“.

• قانون القيامة ”نظر إلى قيامة المسيح...“ الذي يُقال في بدء تسبحة نصف اللَّيل، نجد أنَّ التَّرجمة العربيَّة للنَّص اليوناني له، ينسب تسبحة الثَّلاثة تقديسات إلى السَّيْرَافِيْم، وهو ما يمارس حتى اليوم في الكنائس البيزنطِيَّة. أما التَّرجمة

١- وهي المعروفة عند الأقباط بتسبحة الملائكة، نقول فيها: ”نسبحك، نباركك، نخدمك، نسجد لك، نطق بمجدك، نشكرك على عظم مجدك“. وقد أثبتت الدَّراسات الآبائيَّة، أنها من وضع البابا أثناسيوس الرُّسولي (٣٢٨-٣٧٣م).
وأشيرُ هنا إلى أنه في الآونة الأخيرة قد اقتصر ترتيل الأرباع المختصَّة بهذه المجدلة، على عيد الميلاد فقط!! وهذا خروج على التَّقليد اللَّيتورجي المحفوظ في مخطوطاتنا، ولاسيَّما مخطوطات ترتيب البيعة، حتى إلى أوائل القرن العشرين للميلاد.

العربية للنص القبطي لنفس هذا القانون، فينسب هذه التسبحة إلى الشيروبيم. وربما يكون هذا هو منبت الخطأ التي استمر حتى اليوم.

التَّرْجُمَة العَرَبِيَّة لِلنَّصِّ اليُونَانِي لقانون القيامة	التَّرْجُمَة العَرَبِيَّة لِلنَّصِّ القُبْطِي لقانون القيامة
نسجد للآب ولابنه ولروح قدسه، ثالوثاً مقدساً بجوهر واحد، صارخين مع السيرافيم : قدوسٌ قدوسٌ قدوسٌ أنت يارب.	(١٨) نسجد للآب والابن والروح القدس بوحداً نية الجوهر، ونصرخ مع الشيروبيم قائلين: قدوسٌ قدوسٌ قدوسٌ أنت يارب.

• ويقول إفشين الظهور الإلهي لصفرونيوس بطريك أورشليم طبقاً لكتاب الميناون^(٢) "يَاكَ تخدم القوات الملائكية. لك تسجد مواكب رؤساء الكهنة. الشيروبيم الكثيرو العيون، والسيرافيم ذوو الستة الأجنحة المنتصبون لديك، والقائمون حولك، يحتجبون خوفاً من مجدك الذي لا يُدنى منه".
والجدير بالذكر أن الكنيسة البيزنطية، لديهم مصطلح ليتورجي باسم: "شيروبيكون".

شيروبيكون: Cherubikon – Χερουβικόν

"الشيروبيكون" هي طروبارية كنسية، تُقال في الدخول الكبير^(٣) للقرايين في الليتورجيا البيزنطية ونصها هو: "نحن الممثلين الشيروبيم سريراً، والمرثمين تسبحة التقديسات الثلاثة (Trisagion Hymn) للثالوث معطي الحياة، لنطرح عنّا كلّ الاهتمامات الأرضية، لأننا مزعمون أن نستقبل ملك الكل تحتفُّ حوله القوات الملائكية بحال غير منظور، هليلوبا، هليلوبا، هليلوبا".

أما عن التسبحة السيرافيمية، فيقول نص (إشعيا ٦: ٢-٣):

"السيرافيم وأفقون فوقه، لكل واحد ستة أجنحة، بآئنين يُعطي وجهه، وبآئنين يُعطي رجليه، وبآئنين يطير. ٣ وهذا نادى ذاك وقال: قدوس، قدوس، قدوس، ربُّ الجنود. مجده ملء كل الأرض".

• ويقول البابا أثناسيوس الرسولي (٣٢٨-٣٧٣م):

[... أي كائن أقرب إلى الله من الشيروبيم والسيرافيم؟ ومع ذلك فإنهم لا يشخصون إليه، ولا يمسون الأرض بأرجلهم أمامه، ولا يكشفون وجوههم، بل يغطونها، ويقدمون التسابيح بشفاه لا تفتّر، ولا يفعلون شيئاً آخر غير تمجيد الطبيعة الإلهية الفاتقة، بتسبحة الثلاثة التقديسات]^(٤).

ونحن نقول في الكنيسة في كل قُدّاس:

"يقوم حولك الشيروبيم والسيرافيم ولا يستطيعون النظر إليك، ونحن ننظر كل يوم على المذبح، ونتناول من جسدك ودمك".

٢- كتاب الميناون، الجزء الثاني، طبع بإجازة من ألكسندروس الثالث بطريك أنطاكية وسائر المشرق، للروم الأرثوذكس، دمشق سنة ١٩٥٨م، ص ٨٠ تحت يوم ٦ كانون الثاني.

وكتاب الميناون، هو أحد الكتب الطقسية المستخدمة في الكنيسة البيزنطية، ويُسمى بالشَّهري. ويجوي مجموعة الصلوات التي تشتمل على خدمة الأعياد السيديّة وتذكارات القديسين. وقد اعتنى به ألكسندروس الثالث بطريك أنطاكية وسائر المشرق.

3. Lampe, *op. cit.*, p. 1523.

والدخول الكبير في الطقس البيزنطي، هو دخول القرايين بموكب من الهيكل الجانبي إلى الهيكل الرئيسي.

٤- مقالة في تفسير لوقا ١٠: ٢٢-٢٣ - فقرة ٦

Cf. NPNF., 2nd series, vol. IV, on Luke X, 22 p. 90 ; PG., 25, 217

10 ← وكلامنا الآن عن التَّسْبِحة السِّيرافيميَّة في الكنيسة القبطيَّة

الجدير بالذكر هنا، أنَّ استخدام التَّقديسات الثلاثة في إفخارستيَّة الإسكندريَّة، مسبوقة بمقدِّمة لها يقولها الكاهن، قريبة الشَّبه جدًّا من إفخارستيَّة سراييون، وهو ما وجدناه في الجدول السَّابق، نجد آثارها الأولى في كتابات العلامَّة أوريجانوس المصري (١٨٥-٢٥٤م) في غضون سنة ٢٣٠م. وهي أوَّل إشارة محدَّدة، لاستخدام هذه التَّسْبِحة في الليتورجيَّا المسيحيَّة عموماً.

والتَّسْبِحة السِّيرافيميَّة كانت شائعة ومعروفة في الأدب المسيحي المبكِّر. فكلمات هذه التَّسْبِحة نجدها في كتابات كليمنس الروماني ورأس كنيسة روما خلال الفترة (٩٢-١٠١م)، والعلامَّة ترتليان (١٦٠-٢٢٥م)، ولكنَّها لا تنعكس بالضرَّورة على كون التَّسْبِحة السِّيرافيميَّة المشار إليها، لحناً كنسيًّا يُقال في داخل الليتورجيَّا.

فيقول كليمنس الروماني في رسالته إلى أهل كورنثوس (٥:٣٤)^(٥):

[ليكن مجدُّنا وثقتنا بالرَّب، ولتُخضع ذواتنا لمشيئته، لأنَّ الكتاب يقول: ربوات ربوات، وقوف حوله. وألوف ألوف يخدمونه. ويصرخون قائلين: **قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ ربُّ الصِّبَاوُوت، كلُّ الخليقة مملوءة من مجده**^(٦). ونحن أيضاً، إذ نجتمع معاً في مكان واحد باتفاق داخلي، نصرخ بإصرار كما من فم واحد، لنصير شركاء مواعيده العظمى والمجيدة].

ولكن هذا الكلام الذي يذكره كليمنس الروماني، لم يشر به إلى أنَّ هذه التَّسْبِحة تُقال داخل الصَّلَاة الليتورجيَّة، لأنَّها حتى ذلك الوقت، لم تكن مراداً ليتورجيًّا.

وكذلك أيضاً العلامَّة ترتليان (١٦٠-٢٢٥م) في مقالته عن الصَّلَاة (٣:٣)، يعقِّب على هذه التَّسْبِحة الكتابيَّة، بعبارة مؤثِّرة، فيقول:

[الذي تقف حوله **الملائكة**، وهم ينشدون بلا انقطاع: **”قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ“**. وبالمثل نحن أيضاً المرشَّحين للطقس الملائكي، إذا ما نجحنا في استحقاق هذه الخدمة، فلنبداً ونحن هنا على الأرض، في تعلُّم هذا اللحن قليباً، لأننا سوف نرفعه هنالك إلى الله].

وكلام العلامَّة ترتليان السَّابق ذكره، لا يشير - حتى ذلك الوقت - إلى مرد ليتورجي، يُقال في داخل الليتورجيَّا.

كما أنَّ التَّسْبِحة السِّيرافيميَّة، تغيب في ليتورجيَّة هيبوليتس، أي أنها تسبحة لم تكن تعرفها كنيسة روما حتى ذلك الوقت. كما أنها تغيب أيضاً في أقدم الوثائق الليتورجيَّة.

أمَّا كون التَّسْبِحة السِّيرافيميَّة نصًّا ليتورجيًّا يُقال في داخل الليتورجيَّا، فأوَّل استخدام لها كان في كنيسة الإسكندريَّة، وبالتَّحديد في القدَّاس المرقسي، وقدَّاس القديس سراييون. فهي إحدى العناصر المصريَّة الأصيلَّة التي انتقلت إلى ليتورجيَّة كنيسة أورشليم^(٧)، إذ أشار إليها القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦م) في عظته الثالثة والعشرين (في الأسرار ٦:٥).

يقول القديس كيرلس الأورشليمي:

[نذكر السِّيرافيم الذي رآه إشعياء بالروح القدس واقفين حول عرش الله، بجناحين يغطون وجوههم، وباتنين يغطون أرجلهم، ويطيرون باتنين، صارخين قائلين: قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ ربُّ الصِّبَاوُوت. إننا نردِّد هذا الاعتراف الذي سلَّم إلينا من السِّيرافيم، حتى نكون مشاركين للقوَّات العلويَّة تسبيحهم].

(عظات طالبي العماد ٢٣ / في الأسرار ٥ : ٦).

٥ - وهي من مدوَّنات أواخر القرن الأوَّل الميلادي.

٦ - دانيال ١٠:٧ ؛ إشعياء ٣:٦

7. Cuming, *Egyptian Elements in the Jerusalem Liturgy*, in *JTS* 25, (1974), p. 117-124.

كما أن القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م)، قد ذكرها في أكثر من موضع من مؤلفاته، كطقس استقر في كنيسة أنطاكية. ومن بواكير الوثائق السريانية التي نتعرف منها على وجود هذه التسبحة في الكنيسة الأنطاكية، الكتاب المعروف باسم "أعمال القديس يوحنا". وهو كتاب من كتب الأدب المسيحي القصصي التخيلي، ومن مدونات القرن الرابع الميلادي.

يقول القديس يوحنا ذهبي الفم:

[من أعلى، القوات الملائكية ينشدون تسيحًا، **السِّيرافيم** يصيحون بتسبحة التَّقديسات الثلاثة (Trisagion)، من أسفل جمهور البشر يرسلون إلى فوق نفس التسيح. الكائنون في السماء والأرض أحضروا في جماعة واحدة. شكر واحد، هتافُ بهجة واحد، وخورس فرح واح].

Homilia I in Oziam seu de Seraphinis, PG., 65, 97.

ويشهد القديس أنثاسيوس الرسولي (٣٢٨-٣٧٣م) إن تسبحة السِّيرافيم قد انتشرت في كل الكنائس شرقاً وغرباً. وقد ورد في كتاب الثالوث والروح القدس، والمنسوب خطأ إلى البابا المذكور، ما يفيد بأن النص الذي صار معمولاً به لهذه التسبحة هو نفس النص الوارد في ليتورجية القديس سراييون.

النص: "أنت هو الذي يقف حولك **السِّيرافان** المكرَّمان جدًّا ذوا الأجنحة الستة. بجناحين يغطيان الوجه، وباتنين يغطيان الرِّجلين، ويطيران باتنين. ويقدسانك. اقبل أيضاً تقديسنا قائلين معهم: **قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ ربُّ الصبأوت، السماء والأرض مملوءتان من مجدك**". (خولاجي سراييون ١٣: ٩-١٠)

وسبق أن ذكرتُ أن العلامة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م) أشار إلى الرباط المحكم الذي يربط بين السِّيرافين اللذين ورد ذكرهما في الإصحاح السادس من سفر إشعياء النبي، وبين النص الليتورجي للتسبحة السِّيرافيمية Sanctus نفسها من داخل الليتورجيا. فيقول العلامة أوريجانوس:

[كان إشعياء يقول بقلب رؤيوي إن كلا السِّيرافين وحدهما يجبان بجناحين وجه الله، وبجناحين قدميه، وبجناحين يطيران وهما يصرخان الواحد نحو الآخر: قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ ربُّ الصبأوت، الأرض كلها مملوءة من مجدك. وبما أن السِّيرافين وحدهما يبسطان أجنحتهما على وجه الله وقدميه، يجب علينا أن نحسر فنشدد على أنه ليس في وسع جيوش الملائكة القديسين، ولا العروش القدوسة، ولا السيادات، ولا الرئاسات، ولا القوات، أن تعرف معرفة كلية بداية كل شيء ونهاية المسكونة] (أوريجانوس في المبادئ ٤: ٢٦)

وهو نفس ما وجدناه في المقدمة الإفخارستية Preface في قُدَّاس القديس سراييون.

التقليد القبطي يختص طغمة السِّيرافيم بهذه التسبحة "السِّيرافيمية" دون غيرها من الطَّغَمات السَّمائِيَّة الأخرى

• يقول القُدَّاس الباسيلي القبطي في نصّه اليوناني: "... يقف حولك **الشِّيروبيم** الممتلئون أعيناً، **والسِّيرافيم** ذوو الستة الأجنحة، يسبحون على الدوام ويصرخون ويقولون".

أورد هنا النص القبطي بحسب الخولاجي المطبوع سنة ١٩٠٢م.

أنت هو القيام حولك **الشِّيروبيم** الممتلئون أعيناً، **والسِّيرافيم** ذوو الستة الأجنحة، يسبحون بالدوام بغير سكوت قائلين:

• يقول القُدَّاس الغريغوري القبطي في نصّه اليوناني: "أنت الذي يقف حولك **السِّيرافيم**، ستة أجنحة للواحد، وستة أجنحة للآخر، فبجناحين يغطون وجوههم، وباتنين أرجلهم، ويطيرون باتنين، ويصرخ الواحد للآخر، يسبحون تسبحة الغلبة والخلاص الذي لنا، بصوت ممتلئ مجداً... ينشدون ويصوتون ويمجدون ويصرخون قائلين".

أورد هنا النص القبطي بحسب الخولاجي المطبوع سنة ١٩٠٢م.

• يقول القُدَّاس المرقسي القبطي في نصّه اليوناني: "أنت الذي يقوم أمامك حيوانك الكريمان جدًّا، الكيروبان كثيرا

الأعين، والسِّرافيم ذوو السِّنة الأجنحة، الذين يجناحين يغطون وجهيهما، بسبب لاهوتك غير المنظور وغير المدرك، وبأثنين يغطون الرجلين، ويطيرون بأثنين. ويصرخون الواحد قبالة الآخر بأفواه لا تكف وشفاه لا تسكت، وبتمجيدات لا تنقطع، تسبح الغلبة والتَّقديسات الثلاثة τρισάγιον، يسبحون ويصرخون ويمجدون مجدك المستحق كلَّ عظمة بصوت جلي“.

أورد هنا النَّصُّ القبطي بحسب الخولاجي المطبوع سنة ١٩٠٢م^(٨).

التَّطوُّر الذي لحق بنص التَّسبحة السِّرافيميَّة في الكنائس المختلفة

في النَّصِّ اليوناني للقُدَّاس الباسيلي القبطي، الذي أورده رُنودو E. Renaudot يرد المرد هكذا: ”قُدُّوسُ قُدُّوسُ قُدُّوسُ ربُّ الصِّبَاوُوت“^(٩). بدون آية إضافات أُخرى. فهذا هو المرد في صورته القديمة جدًّا.

← 10 أمَّا في قُدَّاس القُدَّيس سراييون، فيأتي المرد: ”قُدُّوسُ قُدُّوسُ قُدُّوسُ ربُّ الصِّبَاوُوت، السَّماء والأرض مملوءتان من مجدك“. بدون وصف لهذا ”المجد“. أمَّا الكاهن، فيلتقط كلمات المرد من الشَّعب، ليضيف بقوله: ”السَّماء والأرض مملوءتان من مجدك المهوب جدًّا...“.

وهو نفس ما نجد في مخطوط دير البلايزا^(١٠)، الذي يورد جانباً من النَّصِّ اليوناني للقُدَّاس المرقسي، حيث يرد المرد بدون وصف مجد الرَّب الذي يملأ السَّماء والأرض. فالمرء هو: ”قُدُّوسُ قُدُّوسُ قُدُّوسُ ربُّ الصِّبَاوُوت، السَّماء والأرض مملوءتان من مجدك (وفي نص آخر: من مجده)“.

وجديرٌ بالذكر هنا، أنَّ كلمة ”الأقدس“ في وصف هذا المجد، لم ترد في الطُّقس البيزنطي كما في قُدَّاس القُدَّيس يوحنا ذهبي الفم.

٨- النَّصُّ اليوناني للقُدَّاس المرقسي بحسب مخطوط كسمارسك Kacmarck الذي يعود إلى القرن الرَّابع عشر الميلادي يقول: ”... حيواناك الكرِّيمان جدًّا، الكيروبان كثيرا الأعين، والسِّرافيم ذوو السِّنة الأجنحة ... إلخ“
أمَّا النَّصُّ القبطي لنفس هذا القُدَّاس، فيقول: ”... حيواناك الكرِّيمان جدًّا، ذوا السِّنة الأجنحة، كثيرا الأعين، السِّرافيم والشِّروبيم“. وفي الحقيقة لو راجعنا النَّصوص اليونانيَّة للقُدَّاسين الباسيلي والغريغوري في هذه الجزئيَّة، نجد أنَّ النَّصِّ اليوناني دقيق في التفريق بين طغمي الشِّروبيم والسِّرافيم، باستثناء النَّصِّ اليوناني للقُدَّاس المرقسي. ولكن يظلُّ قُدَّاس القُدَّيس سراييون هو الأكثر دقة في هذه الجزئيَّة بين جميع القُدَّاسات القبطيَّة، حيث يقصر التَّسبحة السِّرافيميَّة على طغمة السِّرافيم فحسب، طبقاً لنص إشعياء ٦: ٢، ٣.
ففي القُدَّاس المرقسي، النَّصُّ القبطي ظنَّ أنَّ تعبير ”حيواناك الكرِّيمان جدًّا“ المقصود بهما السِّرافيم والشِّروبيم، وهذا غير دقيق. أمَّا النَّصُّ اليوناني لنفس القُدَّاس المرقسي وبحسب مخطوط كسمارسك، فيذكر أنَّ المقصود بتعبير ”حيواناك الكرِّيمان جدًّا“ هما الكيروبان كثيرا الأعين. وهذا أيضاً غير دقيق لأنَّ العرش الإلهي يحمله أربعة من طغمة الشِّروبيم، وليس اثنان فقط. ولذلك كان النَّصُّ في قُدَّاس القُدَّيس سراييون هو الأكثر دقة كما سبق أن ذكرت. وأظنُّ أنَّ تعبير ”حيواناك الكرِّيمان جدًّا“، أصله بحسب النَّصِّ القديم ”السِّرافان المكرمان جدًّا ذوو السِّنة الأجنحة“. ولما استبدل السِّرافان بالحيوانين وقصد بهما الكاروبان، احتل المعنى.

ومن أجل ذلك، أميل إلى الرأي الذي يقوله العالم اللَّيتورجي جوفري كامنج Geoffrey Cuming (١٩١٩-١٩٨٨م) مؤلِّف كتاب في تاريخ اللَّيتورجيا الأجليكانيَّة، حيث نشر دراسة حديثة لم تر النُّور إلاَّ بعد انتقاله، يقول فيها بأنَّ النَّصِّ اليوناني الوارد في مخطوط كسمارسك هو ترجمة عن القبطيَّة، وأنَّ العالم ماكومير Macomber أخطأ عندما اعتبره نصًّا يونانيًّا أصيلاً.

Cf. Cuming, Geoffrey J., *The Liturgy of St Mark, edited from the manuscripts with a commentary*, in *Orientalia Analecta*, 234, Pontificium Institutum Studiorm Orientalium, Roma, 1990, p. XXXIII.

9- PG., 31, p. 1636 C.

١٠- إنَّ أقدم مخطوطين للبتورجيا مار مرقس في نصِّها اليوناني، كما كانت تمارسها الكنيسة القبطيَّة، هما بردية ستراسبورج، وبردية دير البلايزا.

بردية ستراسبورج Strasbourg papyrus

تم اكتشافها في سنة ١٩٢٨م، وهي باللُّغة اليونانيَّة على ورق البردي. وهي محفوظة في مكتبة جامعة ستراسبورج برقم (Gr 254)، وتشتمل على جانب من الجزء الأوَّل من لبتورجيا مار مرقس الرُّسول. وقد استدلَّ العلماء الذين فحصوا هذه البرديَّة، على أنَّ زمن كتابتها يرجع إلى النَّصف الأوَّل من القرن الرَّابع الميلادي.

بردية دير البلايزا Balayza papyrus

تم اكتشافها بالقرب من أسبوط سنة ١٩٠٧م، وتعود إلى القرن السَّادس الميلادي، ومحفوظة في مكتبة بودليان بأكسفورد بإنجلترا تحت رقم Gr. Lit. d2-4 (P) وتحتوي النَّصِّ اليوناني للبتورجيا القُدَّيس مرقس الرُّسول الذي يكمل نصَّ بردية ستراسبورج السَّابق ذكرها.

كما يضيف الطقوس الأورشليمي والطقوس البيزنطي وطقس روما بعد التسبحة السيرافيمية، العبارة التالية: "أوصنا في الأعالي. مبارك الآتي باسم الرب".

وفي قدّاس القديس يعقوب أخي الرب، حسب التقليد السرياني القديم، تأتي هذه التسبحة هكذا: "قُدُوسٌ قُدُوسٌ قُدُوسٌ ربُّ الصِّبَاوُوت، السَّماء والأرض مملوءتان من مجدك، أوصنا في الأعالي، مبارك الذي أتى والذي يأتي باسم الرب، أوصنا في الأعالي".

وهو نفس المرد الذي يأتي في القدّاس الغريغوري القبطي بنصّه اليوناني^(١١). وهو نفس ما يذكره أيضاً المخطوط رقم ١٥٥ طقس). بمكتبة دير القديس أنبا مقار، الذي يورد النصّ اليوناني للقدّاس الغريغوري.

وهو أيضاً نفس المرد الذي يأتي في قدّاس الرُّسل، المعروف باسم قدّاس الرُّسوليين أداي وماري.

أمّا تفسير هذه الكنائس لدمج الشّيددين معاً، السّماوي والأرضي، الملائكي والبشري، فهو إشارة إلى أن السّماء والأرض اتّحدتا بتجسّد المسيح وفدائه، وأنّ الملائكة والبشر معاً يؤلّفون كنيسة واحدة، رأسها المسيح الإله الإنسان، وهكذا «نجنو باسم يسوع كلُّ رُكبة، ممّن في السّماء، ومن على الأرض، ومن تحت الأرض» (فيلي ١٠:٢).

إنّ الأصول الأولى لإضافة فعل البرّكة "مبارك..."، على التّقديسات الثلاثة، نجده في كتاب المراسيم الرّسوليّة ذي التقليد السرياني (٢٧:١٢:٨)، حيث تأتي التسبحة السيرافيمية فيه هكذا: "قُدُوسٌ قُدُوسٌ قُدُوسٌ ربُّ الصِّبَاوُوت، السَّماء والأرض مملوءتان من مجدك. مبارك أنت إلى الأباد. آمين". أمّا الكتاب السّابع من المراسيم الرّسوليّة (٣٥:٧)، فيورد إحدى صلوات البرّكة المقتبسة من الصّلوات اليهوديّة، وهي: "السّيرافيم المكرّمون، مع الشّيروبيم ذوي الأجنحة السّنة، ينشدون لك تسبحة الغلبة، بأصوات لا تسكت، صارخين: قُدُوسٌ قُدُوسٌ قُدُوسٌ ربُّ الصِّبَاوُوت، السَّماء والأرض مملوءتان من مجدك. وجموع الرُّتب الأخرى، الملائكة ورؤساء الملائكة، والعروش، والرّئاسات، والأرباب، والسّلّاطين، والقوّات، يصرخون بصوت عالٍ قائلين: «مبارك مجد الرب في مسكنه» (حزقيال ١٢:٣).

ونص هذه التسبحة هنا مطابق لما يُتلى في المجمع اليهودي في صلوات الصّباح، فهو يأتي مرتبطاً بآية حزقيال النبي «مبارك مجد الرب في مسكنه» (حزقيال ١٢:٣ سبعمية).

ونجد في هذا النصّ، الأصول الأولى لارتباط تسبحة السّيرافيم "قُدُوس" مع الجزء المضاف "مبارك"، والتي تعرفها بعض الطّقوس حتى اليوم. بل ويرى العلماء أن هذا الارتباط له أصول أيضاً في كتاب سفر أخنوخ (٩:٣٩-١٤)، وهو من مدوّنات القرن الثاني قبل الميلاد. وقد كان شائع التّداول في الأوساط المسيحيّة في القرون الثلاثة الأولى: "في ذلك اليوم حمدتُ ومجّدتُ اسم ربّ الأرواح بركات وتسيّحات، قائلاً: مبارك هو، وليكن مباركاً من الأزل وإلى الأبد... أولئك الذين لا ينامون يباركونك وهم وقوف أمام مجدك يباركونك ويمجدون ويمجّدون قائلين: قُدُوسٌ قُدُوسٌ قُدُوسٌ ربُّ الأرواح، هو يملأ الأرض بالأرواح (الملائكيّة). وهنا رأيت عيناى كلّ أولئك الذين لا ينامون، وهم وقوف أمامه، يباركونه ويقولون: مبارك أنت، ومبارك اسم الرب إلى أبد الدّهور".

وخلصة القول هي إنّ التسبحة السيرافيمية كانت شائعة ومعروفة في الأدب المسيحي المبكر. أمّا كونها نصّاً ليتورجياً يُقال في داخل اللّيتورجيا، فأول استخدام لها كان في كنيسة الإسكندرية، وبالتّحديد في القدّاس المرقسي، وقدّاس القديس سراييون.

كما يقرّر علماء اللّيتورجيا، أنّ التسبحة المصريّة التي لا تحتوي على الجزء المضاف: "مبارك الآتي... إلخ"، هي تسبحة أصيلة تتميّز بها الإفخارستيا القبطيّة. ويمكن ملاحظة ذلك في قدّاس سراييون، وقدّاس القديس مرقس الرّسول، وكذلك برديّة دير البلايزا التي عُثر عليها في دير البلايزا بالقرب من أسيوط، ويرجع تاريخ نساختها إلى القرن السّادس الميلادي، أمّا النصّ نفسه، فيرجع إلى القرن الثالث أو الرّابع للميلاد على أقصى تقدير^(١٢).

11. O.H.E. Burmester, *The Greek Kirugmata, ... op. cit.*, p. 376.

12. Robert, C.H., & Capelle, Dom B., *An Early Euchologium*, Louvain 1949.

الأسبسموس الذي يسبق التَّسْبِحة السِّيرافيميَّة

أمَّا الأسبسموس الذي يسبق التَّسْبِحة السِّيرافيميَّة، وهو: ”الشِّروويم يسجدون لك، والسِّرافيم بمجدونك، صارخين قائلين“، فهو مقدِّمة لم ترد مرتبطة بهذه التَّسْبِحة في أيِّ خولاجي قبطي عربي بدءاً من مخطوط الفاتيكان رقم (١٧ قبطي/ ١٢٨٨م)، ومخطوط أكسفورد رقم (٣٦٠ هنت)، وحتى في الخولاجي المطبوع سنة ١٩٠٢م، والذي راجعه القُصُّ عبد المسيح صليب المسعودي على مخطوطات خولاجيَّات قديمة. ولم ترد كذلك في القُدَّاسات القبطيَّة الثلاثة الباسيلي والغريغوري والكيرلسي، لا في نصوصها القبطيَّة، ولا في نصوصها اليونانيَّة^(١٣).

أمَّا ابن كَبْر في القرن الرَّابِع عشر الميلادي، فنجد عنده أصلُ هذه المقدِّمة، وسبب ارتباطها بالتَّسْبِحة الأصليَّة كأسبسموس واطس مختصر يسبقها مباشرة، يُقال في الأعياد والمناسبات. فيقول: ”وإذا قال الشَّمَّاس: ’الجلوس فليقفوا. وإلى الشَّرْق فينظروا‘، يتبع ذلك بقوله: ’أجيبوا **просхвием** (بروسخومين) فيقول الشعب: ’قُدُّوسٌ **αγιος**، (ثلاث مرَّات). وفي أيام الأعياد والآحاد وأوقات الفسحة والاحتفالات، يقولون: **Πιχεροτβνι σεοτωυτ `μμοκ** (أي: الشِّروويم يسجدون لك ... إلخ)“^(١٤).

وأظنُّ أنَّ ما يذكره ابن كَبْر، يعني بالضرَّورة أنَّ هذه المقدِّمة ”الشِّروويم يسجدون لك والسِّرافيم يسبحونك صارخين قائلين“، لم تكن تُقال كما نقولها اليوم بهذه السَّرعَة، بل كانت ذات لحن مميَّز، يستوجب أدائه فترة من الوقت.

وبينما أنَّ هذه التَّسْبِحة السِّيرافيميَّة معروفة في كافة الليتورجيَّات - حتى القبطيَّة منها - بنصِّها اليوناني، نجد أنَّ مقدِّمتها السَّابِق الإشارة إليها، هي باللُّغة القبطيَّة. ممَّا يعني أنَّ هذه المقدِّمة، لم تكن أبداً مردداً واحداً مع التَّسْبِحة السِّيرافيميَّة.

ونلاحظ أيضاً أنه في حالة ترتيب أحد الأسبسموسات الواطس التي تسبق التَّسْبِحة السِّيرافيميَّة، فإنَّ هذه المقدِّمة المختصرة تسقط، باعتبارها أسبسموس آخر، بينما يعقب الأسبسموس كلمات التَّسْبِحة السِّيرافيميَّة فقط، بدءاً من: قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ ... إلخ.

إذا فهذه المقدِّمة القبطيَّة، كانت بمثابة أسبسموس واطس مختصر، كان يُقال قبل هذه التَّسْبِحة في بعض المناسبات والأعياد، ثمَّ ألحق بها فيما بعد هائلياً كمقدِّمة لها. فصار يُردَّد هكذا في الكنائس، بينما ظلَّت الكُتُب الطَّقسيَّة المدقَّقة، تسجِّل هذه التَّسْبِحة بدونها^(١٥).

13. W.F. Macomber, *op. cit.*, OCP., 43, (1977), p. 323.

١٤ - مخطوط رقم (عربي ٢٠٣) بالكنيسة الأهليَّة بباريس، وهو كتاب ”مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة“، لابن كبر، الباب ١٧، ورقة ٢٠٧.

15. Burmester, *The Egyptian or Coptic Church ...*, *op. cit.*, p. 64-65.